فاس
حاضرة الفكر في القارة الافريقية

عبد العزيز بن عبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ اثني عشر قرنا بدأت فاس تعمق في أحشاء الشمال الافريقي جذورها الرائدة حيث أثلت المملكة الادريسية دعامتها العمرانية ومعالمها الاقتصادية وقوام بنيتها الفكرية فتناثرت أبعادها من الشمال الى أقصى الجنوب ومن الشرق الى المحيط في فترات تبلورت خلالها كمنطلق رصين لحضارة وصلت الشرق بالغرب وافريقيا بأوربا .

ان فاسا أول حاضرة عرفها المغرب الكبير بعد القيروان كتحفة معمارية شرقية غربية تواكبت فيها الاصالة العربية مع الاثالة الامازيغية في ظل الاسلام وريادة سليل الرسول الفاتح الاكبر المولى ادريس .

نعم ان المولى ادريس الاول هو الذي أسس مدينة فاس بين سنتي 172 و 174 هـ وقد أبرز ذلك أقرب المؤرخين لذلك العصر أبو بكر الرازي المتوفى عام 344 هـ / 955 م وسانده ابن فضل الله العمري في (مسالكه) عن ابن سعيد المغربي قاصدا (عدوة الاندلس) بينما أسست (عدوة القرويين) حسب (ابن الابار) نقلا عن (أبي الحسن النوفلي) عام 187 هـ / 802 م على يد المولى ادريس الثاني وهي

روايات تتضافر لا سيما وقد عثر على نقود ادريسية ضرب منها عام 189 هـ / 804 م بفاس درهم لا يزال محفوظا فى المكتبة الوطنية بباريس كما يوجد درهم ادريسي آخر مسكوك بفاس فى متحف (كاركوف) بروسيا يحمل تاريخ 185 هـ / 801 م ، وقد أشار الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي فى جغرافيته العامة الى عام 185 هـ / 801 م كسنة محتملة لاقامة هذه الحاضرة ، وقد سار المؤرخون على هذا النسق فلاحظ القلقشندي (1) ان فاسا مدينتان احداهما بناها المولى ادريس بن عبد الله وتعرف بعدوة الاندلس والاخرى بنيت بعده وتعرف بعدوة القرويين ، وقد هاجرت الى فاس من الاندلسيين الربضيين الذين اجلاهم الحكم بن هشام عن قرطبة عائلات أوصلها عبد الملك الوراق الى أربعة آلاف ، ودوزي (فى تاريخ مسلمي الاندلس ج 1 ص 301 عام 1932) الى ثمانية آلاف وحطها الى ثمانمائة فقط المؤرخ الفرنسي (هنري طيراس) (2) انتجاعا للتوازن مع عدد الاسر النازحة من القيروان وهو ثلاثمائة اسرة كان منها العملة والتجار ومن الاندلسيين الفلاحون والمزارعون ومن كليهما اشتات من رجالات الفكر والمعرفة ، ثم جاءت جامعة القرويين كأقدم جامعة فى العالم لا تزال قائمة لحد الآن أسست عام 245 هـ فكان لها ضلع قوي فى نشر الفكر الاسلامي بافريقيا كما كانت مهبط رواد المعرفة من كافة أنحاء القارة حيث أصبح العلماء الافارقة يفاخرون زملاءهم بأنهم خريجو (جامعة القرويين) وقد توالت الخطابات والمراسلات والزيارات واستصدار الاجازات العلمية بين علماء فاس وتلامذتهم الافارقة الذين اتخذوا من العاصمة الادريسية قبلتهم الفكرية .

وقد أقيمت جامعة القرويين على يد أم البنين فاطمة الفهرية القيروانية فكان هندامها المعماري صورة لوحدة الاتجاه توازت فيه البلاطات مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء بفاس وجامع ابن طولون فى القاهرة وجامعة بعلبك ودمشق فى الشام ، ويظهر ان جامعة القرويين التي استقطبت طلبة افريقيا لم تخل منذ البداية من بعض الطلبة الغربيين

---

(1) (صبح الاعشى ج 5 ص 154)
(2) (تاريخ المغرب ج 1 ص 118)

وان كان ذلك لم يتاكد بالنسبة للبعض مثل جيربير Gerbert الـــذي عين على رأس الكنيسة باسم البابا سيلفستر الثانـــي Sylvestre II عام 999 م / 390 هـ وأدخل الارقام العربية الى اوربا ناقلا صورهـــا العددية من فاس وهي الارقام التي سادت العالم اليوم باســـم الارقـــام العربية أو الغبارية .

وللمرة الاولى فى عهد المولى ادريس الثاني برز فى تاريخ القـــارة الافريقية مسار من المغرب الى الصحراء وما وراءها من بـــلاد التكرور والسودان نحو خط الاستواء بعد أن التفت حول سليل النبوة الذي دخل الى المغرب فريدا وحيدا رفقة مولاه راشد ـ قبائل امازيغ من أوربـــة أصحاب كسيلة وجراوة حماة الكاهنة وكتامة دعاة الفاطميين وصنهاجـــة المرابطين ومصمودة الموحدين ولم يكن لذلك نظير من قبل فى تاريـــخ الانسانية كما أبرزه ابن خلدون باندهاش واعجاب .

وقد أصبح المولى عبد الله بن المولى ادريس الثاني ملكا لاغمات ونفيس وبلاد مصمودة ولمطة أي الاطلس الغربي والاطلس الصغير وهو الذي أسس مدينة (تامدلت) قرب منجم فضي بين وادي درعة وايجلي بسوس (3) ، وهي مناطق عجز الرومان عن بلوغها رغم ما عبأوه من عـــدة لبسط نفوذهم وهنالك بدأ تاريخ المغرب الحقيقي ـ كما يقول كوتيي ـ وانفتحت مشارف الصحراء تلقائيا فى وجه سلائل ادريسية كالمولـــى سليمان الذي استقر بتوات وأسس قصر آيت أوشن فى تيمى حيث يوجد قبره (4) ، وقد اكد النسابون أن ليحيى بن المولى عبد الله الكامل أخـــي المولى ادريس الفاتح عقبا كثيرا بالسودان منهم فـــرق فى (برنـــو) و (هوصة) و (بولان) و (فزان) و (تنبكتو) (5) وبذلك ارتبطت منذ البداية أواصر هذه السلالة من خط الاستواء الى البحر المتوسط على

---

(3) (البكري ص 163 / البربر والمخزن ـ روبير مونطاني ص 58 طبعة 1930)

(4) القبطان مارتان صاحب كتاب (أربعة قرون من التاريخ المغربي) وكتاب (الواحات الصحراوية) الذي نشر عام 1908 بالجزائر .

(5) الدرر البهية ج 2 ص 200

أن بني ادريس لم ينتشروا فى القارة الافريقية والاندلس فحسب بل وحتى فى الشرق حيث أسس محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن ادريس دولة الادارسة فى (صبيا) و (عسير) باليمن وأصله من فاس وقد توفي عام 1341 هـ / 1923 م (6) .

ومنذ القرن الثالث الهجري سدت طريق القوافل التي كانت تصل مملكة غانة بمصر واصبحت الوشائج موصولة بين السودان والشرق عن طريق سجلماسة التي كانت فى طليعة المراكز التجارية فى أقطار الاسلام وأمسى المغرب ـ حسب ابن حوقل ـ ممرا للقوافل المتنقلة بين الصحراء وبغداد والبصرة وعزز الصنهاجيون هذه الوصلة من غدامس بطرابلس الغرب الى المحيط الاطلسي ومن الجنوب الى تخوم السينغال والنيجر حيث تكونت على يد المرابطين أول دولة افريقية امتدت من الاندلس الى الجزائر الى السودان الغربي ، وقد انطلقت كتائب المنصور من فاس الى النيجر بقيادة الباشا (جودر) حيث استقر بتنبكتو حاضرة مالي عام 1000 هـ / 1591 م وبعد ذلك بأقل من قرن انطلقت (حركات) المولى اسماعيل نحو الاقاليم الخصبة من السودان فتجاوزت الحدود التي وصلها المنصور ثم عقبتها كتائب المولى عبد الله بين سنتي 1147 هـ / 1734 م و 1149 هـ / 1736 م وظل السودان تحت حماية فاس الى أن استولى عليه العالم الصوفي سيدي عمر الفوتي مؤسس مملكة السود (7)، والفوتي هذا تلميذ لسيدي الغالي بوطالب الفاسي تنازل بايعاز منه عن العرش لمواصلة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وكان له بفاس شيوخ آخرون انقاد لتوجيهاتهم الروحية فى حركته الجهادية ، وكان حصن داي بأسفل الاطلس هو المركز الذي يتجمع فيه تجار فاس والبصرة وسجلماسة (8) .

وامست فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية حيث عرفت مذهبي الاوزاعي وابي حنيفة قبل أن يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان

---

(6) الاعلام للزركلي ج 7 ص 196 / ملوك العرب ج 1 ص 198 / تاريخ (سينا لنعوم شقير) ص 666

(7) (هسبريس ص 11 عام 1930)

(8) (المغرب للبكري ص 154 / افريقيا الشمالية للادريسي ص 49)

الاوزاعي امام اهل زمانه ـ كما يقول مالك ـ قد انتشر مذهبه فى الشام نحو مائتي سنة (خطط الشام لمحمد كرد علي) وكذلك فى الاندلس قبل الامويين (مدارك عياض ج 1 ص 66) وظهرت النظريات الحنفية بافريقية وفاس الى القرن الرابع وكذلك الفقه الشافعي على يد ابي جيدة الفاسي المتوفى حوالي 360 هـ (السلوة ج 3 ص 93) ، ولكن المذهب المالكي تركز وحده نظرا لمساندة الادارسة الذين لم ينسوا لمالك معاضدته بيعة العلويين فى الشرق مما حدا المولى ادريس الاول الى اسناد القضاء لأحد تلامذة مالك وسفيان الثوري وهو محمد بن سعيد القيسي (9) وواصل المرابطون والموحدون دعم الرباط الوثيق بين حضارات افريقيا والاندلس والشرق فوسع الاولون جامعة القرويين وعزز الآخرون (العقيدة الاشعرية) التي اتسعت شبكتها لتعم جزءا كبيرا من القارة .

وقد عرفت فاس ظاهرة جديدة فى العهد المريني عززت هجرة الطلبة الافارقة الى المغرب وهي بناء اربع عشرة مدرسة ـ هي عبارة عن أحياء جامعية ودور للطلبة وما زال الكثير منها قائما الى الآن ومفضل العذري صاحب الشرطة والحسبة بفاس هو أول من سن سنة بناء هذه المدارس(10) وقام ضدها محمد الآبلي شيخ ابن خلدون وابن بابا السوداني بدعوى تسببها فى القضاء على ملكة العلم (11) والظاهر أن مقصودهم هو المدرسة فى مفهومها العادي لا دار الطالب ، وتساوقت هذه العوامل لاضفاء طابع خاص على حاضرة فاس تبلورت مجاليه ومعالمه فى معطيات جعلت منها منطلقا للفكر لا فى افريقيا وحدها بل فى دار الاسلام الى ما وراء جبال (البرانس) شمالي الاندلس ، فقد أكد المراكشي وهو الذي عاش بالعراق (المعجب ص 221) انه لا يظن فى الدنيا مدينة كفاس (12) . ولاحظ ابن سعيد المغربي انه لم ير فى الشرق والغرب ما يشبه رونق الاندلس فى مياهها واشجارها الا مدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام

---

(9) (الجذوة ص 13)

(10) (جذوة الاقتباس ص 220)

(11) (نيل الابتهاج ص 246)

(12) « فانها حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس الى أن قال : «وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب»

ولم ير ما يشبهها فى حسن المباني والتشييد والتضييع الا ما شيد فى مراكش فى دولة بني عبد المومن (13) ، ووصف ابن خلدون فاسا بانهـــا « حاضرة ملك بني مرين وكرسي سلطانهم حيث مقر الهـــدى ورياض المعارف نضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيـــح المـــدى » (14) ووصف أبو راس محمد بن أحمد المعسكري الجزائري فى كتابه (فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربي ومنته) النهضة العلمية بفاس فى القـــرن الثالث عشر ملاحظا انها « قبة الاسلام وخزانة الخزائن » (مخطوط فى خـــــع 2263 ك) .

وخلص الشيخ محمد بن جعفر الكتاني من تحليلاته للتراث الفكري بفاس انها « غربال العلم » (15) .

ووصف (باديا لبليش) وهو باي العباسي مدينة فاس بانها « أثينة افريقيا » تشبيها لها بعاصمة الفكر اليوناني (16) .

وقد الف دلفان كتابا نشر بوهران عام 1889 م / 1307 هـ وهـــو « فاس وجامعتها والتعليم الاسلامي العالمي » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصف فيها فاسا ايضا بانها (أثينة افريقيا) وأن جامع القرويـــن اول مدرسة فى العالم (ص 81) ، وكانت توجد بجانبها مائتا مدرســـة حسب مارمول ، وقد صنفت كتب لابراز مركزية فاس بالنسبة للحضارة الاسلامية (17) .

وكتب شارمس فى كتابه (سفارة فى المغرب)

---

(13) لاحظ المقري (النفح ج 2 ص 124) أن حضرة مراكش بغداد المغرب
(14) (التاريـــخ م 1 ص 11)
(15) (السلـــوة ج 1 ص 74)
(16) (رحلة لافريقيا وآسيا من 1803 الى 1807 م)
(17) (فاس آخر مركز للحضارة الاسلامية ـ مجلة باريس يبراير ومارس 1904) كتاب (فاس العاصمة الفنية للاسلام) بقلم مادراس وماسلو ـ الـدار البيضـاء ، طبعة بول بورى 1948 (161 ص) . D. Madras et B. Maslow

(18) Ambassade au Maroc

مؤكدا أن فاسا هي المدينة المقدسة الاولى بعد مكة نظرا لاصلها وللدور المجيد الذي قامت به فى تاريخ الاسلام ، ثم لاحظ انها كانت حقا العاصمة الفكرية والمعنوية للغرب الاسلامي (ص 255) ومعاهدها ومدارسها قد ظلت مدة طويلة أولى مدارس العالم وفيها تبلور ما يسمى بالحضارة العربية التي انبثقت من المغرب لتشع على أوربا (ص 298) . وهذا الاشعاع قد تحقق يوم كانت فاس ومراكش ترسلان أشعتهما الوهاجة على قرطبة واشبيلية وغرناطة طوال ثلاثة قرون واستمرت الوصلة مع أوربا كلها عن طريق التبادل الاقتصادي . وحاول (لوتورنو) (19) الكشف عن سر هذه العبقرية فذكر ان شخصية الفاسي مكونة أصالة من عدة اجناس حيث أمد العربي حضارة فاس بنبله والاندلسي بوقته والقيرواني بحذقه ومهارته واليهودي بحيلته والبربري بصلابته وصموده.

والواقع أن السر الحقيقي يكمن خارج هذه المقتضيات وهو السر الذي جعل المغرب يحتفظ فى ظل فاس طوال اثني عشر قرنا باستقلاله الكامل بينما خضعت مختلف اجزاء العالم الاسلامي لشتى انواع الاستعمار، وقد اعترف بهذه الحقيقة مؤرخون غربيون لاحظوا أن مملكة فاس ظلت موئل التراث الحضاري العربي والفكر الاسلامي دون أية شائبة لانها البلد الوحيد الذي لم يخضع للفرس ولا للماليك ولا للعثمانيين وانحصر الاستعمار الايبيري فى جيوب ساحلية منه أدت انتفاضة تحريرها الى معركة وادي المخازن عام 986 هـ / 1578 م التي أوقف المغرب بانتصاره فيها لأواء الاستعمار البرتغالي فى آسيا والخليج العربي كما اندرجت البرتغال من جرائها طوال نيف وستين سنة ضمن المملكة الاسبانية وتركز نفوذ سلطان فاس المنصور السعدي فى أوربا وافريقيا حيث خاطبته وده دول الغرب ، وخاض غمار الدسائس الاوربية حتى اقترحت عليه انجلترا احتلالا مشتركا للهند كدومنيون Dominion انجليزي مغربي ، وجاهد المنصور من جهة أخرى لنشر الاسلام فى أقصى جنوب القارة الافريقية فهذه (تنبكتو) حاضرة (مالي) التي تأسست عام 494 هـ / 1100 م كانت تؤدي لفاس علاوة قدرها ستون قنطارا من التبر أي الذهب

(19) فى كتابه عن فاس (ص 205)

غير المسبوك فأصبح المنصور السعدي بذلك أعظم أمير فى العالم من حيث رصيده من العملة الذهبية (20) . على أن ملك مالي فى العهد المريني وهو (منسا موسى بن ابي بكر) كان قد وجه وفدا الى ابي الحسن المريني من كبار مالي لتأدية طاعته (21) . وآل سكية قد بايعوا المنصور السعدي فى نهاية الالف الهجرية (22) ، وتغازى بالسودان من ممالك سكية قد خضعت لمحمد الشيخ المهدي والد المنصور السعدي (23) وورد ذكرها فى رسالة المولى اسماعيل الى ولده المامون خليفته بالصحراء (24) بأنها « محسوبة من جملة درعة ومعدودة من عمالتها وكل من يتصرف فى درعة كان يتصرف فيها » .

وقد بايع ابو العلاء ادريس أمير (برنو) (25) المنصور السعدي حيث وصل وفد البيعة الى فاس عام 990 هـ / 1582 م فنزل بمخيم عسكره براس الماء واستنجد أمير (برنو) طالبا المدد بالعساكر والبنادق والمدافع لمحاربة كفار السودان ، وكان قد طلب المدد من الخليفة العثماني مراد فأحاله على أمير فاس حيث حرر نص البيعة ابو فارس عبد العزيز الفشتالي وحملها الرسول الى (برنو) لتوقيعها ثم نقلها مارا بتيكورارين حيث توفي فحملت الى المنصور بفاس (26) وبذلك انتظمت ممالك السودان ـ كما يقول الناصري ـ فى سلك طاعة المنصور السعدي ما بين المحيط الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة قرب صعيد مصر (27)، كما قام المولى اسماعيل عام 1089 هـ / 1678 م بجولة الى حدود

---

(20) (دوكاستر ـ س. أ. ـ انجلترا ج 2 ـ 1594) / (مناهل الصفا ـ ج 2 ص 79 يخص منها مدينة فاس الجزء الثالث (ص 113 ـ 118) من (يومية رحلة الى تنبكتو وجني) ـ روني كايي ـ باريس 1830 .

(21) (الاستقصا ج 2 ص 74)

(22) (مناهل الصفا ـ مختصر الجزء الثاني ص 84 / الاستقصا ج 3 ص 53)

(23) (مناهل الصفا ـ مختصر الجزء الثاني ص 55)

(24) (نشرت عام 1967 مع مجموعة رسائل ص 58)

(25) Bornou مملكة افريقية فى منطقة السودان جنوبي غرب بحيرة التشاد

(26) (الاستقصا ج 3 ص 49)

(27) (الاستقصا ج 3 ص 58)

السنغال (28) . وورد فى الكتاب الاصفر الذي نشرته الحكومة الفرنسية حول الشؤون المغربية (1906 ـ 1907) انه فى عام 1905 أوفد سلطان فاس الى (ادرار) خليفته مولاي عبد الله لمطالبة الفرنسيين بالجلاء عن المنطقة وفى يوليوز من نفس السنة أعلن الخليفة السلطاني مولاي ادريس ازاء تعنت الفرنسيين الجهاد لاسترجاع البلاد الى حدودها الطبيعية بنهر السنغال ، وقد وجه السلطان مولاي عبد الله رسالة ضمنها تعليماته المولوية الى « عمال أقاليم الجنوب المغربي الى نهر السينغال » وكانت ثلاث قوافل تتجه كل عام حوالي 1277 هـ / 1860 م من فاس الى السودان تقدر قيمة حمولتها بثلاثة الى أربعة ملايين (29) . أما فى السودان الشرقي جنوبي مصر فقد لاحظت شخصيا خلال رحلة الى النيل الازرق جنوبي الخرطوم وجود جزيرة يحمل سكانها اسم المغاربة وهي قبائل متعددة لا تختلف عن السودانيين فى العادات وفيما تنتحله من فلاحة وتجارة وتربية سوائم الا انها تحتفظ فى قلب السودان بطابعها المغربي كبياض البشرة ونعومة الشعر وخواص اللهجة المغربية وهذا الشبه فى اللهجة والخط والعوائد يكاد يكون عاما بين المغرب والسودان الغربي الذي كان عبر العصور ممرا للقوافل المغربية ومهبطا للتراث الفقهي أو الصوفي التجاني المنطلق من فاس .

وهكذا ظل السودان الغربي وما والاه الى خط الاستواء خاضعا لفاس طوال أربعة قرون تحت اشراف باشوات بلغ عددهم بالتوالي واحدا وعشرين من عام 1021 هـ / 1612 م الى 1071 هـ / 1660 م و 188 من عام 1071 هـ / 1660 م الى عام 1164 هـ / 1750 م واستعيض عن لقب باشا بلقب الكاهية الذي بقي مشرفا على المنطقة باسم سلطان فاس الى دخول الفرنسيين عام 1311 هـ / 1893 م على عهد جلالة الحسن الاول وعندما هدد الفرنسيون (تنبكتو) وصل وفد سوداني الى عاصمة المولى ادريس للاستنجاد بملك المغرب ، كما وقع بعد ذلك عند غزو فرنسا لتوات

---

(28) وصفها الزياني فى الترجمان المعرب ـ ترجمة هوداس الوثائق المغربية م 9 ص 76 (1906) / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 436 (خ)
(المغرب بين 1631 و 1812 ص 31 للمؤرخ الفرنسي (فومى) Fummey

(29) (مجلة صراء المغرب عدد 4 ص 9 / وصف تاريخ المغرب ـ كدار ج 1 ص 218

وتيد كلت مما أكد أن فاسا ظلت عبر القرون الوجهة الروحية للمسلمين في معظم الاقطار الافريقية من السودان الغربي الى السودان الشرقي .

وقد لاحظ المؤرخ (دولاشابيل) De la chapelle أن جيوش فاس انتقلت من وادان عـــام 1665 م (1076 هـ) الى ادرار عـــام 1678 م (1089 هـ) الى تاكانت عام 1680 م / 1091 هـ الى شنقيط والسودان عام 1730 م / 1143 هـ وتيشيت عام 1789 م / 1204 هـ .

وكانت قبائل (دغوغ) تمتد من وادي سبو بمنطقة فاس الى وادي درعة وجبل فشتالة بدمنات وبلغ تأثير الحركة العلمية بفاس على طول هذه المنطقة مبلغا حدا اليوسي الى القول في حديثه عن الرجراجيين (30) بأن حفظ القرءان و (مدونة شحنون) الفقهية كان من نصيب 6760 رجـــلا و 500 امرأة منهم ، وقد شاهدت في (تافراوت) قبور عشرين فتاة من هذا الطراز ، وطائفة (الالوفا) Alofas التي كانت تنشر الاســـلام في افريقيا الغربية قد درس الكثير من افرادها بجامعة القرويين بفاس (31) . وقد سبق علماء الاسلام جوابي الآفاق الغربيين الى الكشف عن مجاهـــل افريقيا منذ ما قبل القرن السابع الهجري حيث رحـــل (ابن فاطمـــة) الجغرافي الى جنوب مراكش ففرقت سفينته عند (الراس الابيض) بعد ان توغل في كشف الساحل الافريقي الغربي الى أبعد مما كان معروفا عند الغربيين آنذاك (32) ، كما قام الشريف الادريسي السبتي بالكشف عـــن منابع النيل في جنوب افريقيا (33) .

وقد انطلق من فاس الذي هو المركز العالمي للتجانية دعاة من مقدمي الطريقة منذ منتصف القرن الماضي اسسوا مدارس لنشـــر العقيـــدة

---

(30) (المعسول ج 4 ص 9)

(31) 1 ـ (افريقيا الغربية) بقلم ايست D.J. East (لندن 1844)
2 ـ الاسلام والمسيحيـة والسلالـة الزنجيـة بقلـم بليـدن E.W. Blyden (لندن ص 18 و 202)
3 ـ الاسلام في السودان الغربية المركزية ـ مجلة البعثات م 1 ص 644 (1912)

(32) (الكشف عن افريقيا في العصور الوسطى) ـ بقلم دو لارونسيير De la Roncière (م. 1 ص 23 و 48)

(33) (حضارة العرب ـ كوستاف لوبون ـ الطبعة الفرنسية ص 507)

الاسلامية وجماعات للجهاد وتحرير افريقيا من الوثنية والاستعمار الى ما وراء الحدود الاستوائية معا فكان شيوخ الطريقة المرتبطون من حيث السند والتوجيه الروحي بفاس يسلحون المريدين بالسيف لمحاربة المستعمر وبالسبحة لمحاربة النفس والشيطان .

والزوايا التجانية المنطلقة من فاس تعد بالآلاف فى التشاد ونيجيريا ومالي والسودان والسينغال وفى (داكار) وحدها ما يناهز المائة زاوية وكل مريديها لا يدخرون الجهد لتحقيق أمنية غالية وهي التوجه الى مكة والمدينة للحج والزيارة وطرق حاضرة فاس فى الذهاب والاياب وقد اتصلت بمئات العلماء الافذاذ من هؤلاء ممن يرجع الفضل اليهم فى دعم الفكر الاسلامي ولغة القرءان فى الربوع الافريقية ، وقد تحدث الامير شكيب أرسلان فى (حاضر العالم الاسلامي) عن قوة انتشار الفكر الصوفي والدعوة الاسلامية بافريقيا عن طريق كل من التجانية والقادرية ، والحاج عمر الفوتي من الزعماء التجانيين عالم تجلت ضلاعته فى كتابه (الرماح) ولد قرب بودور Podor عام 1212 هـ / 1797 م وبعد عودته من الحج عام 1249 هـ / 1833 م نشط فى نشر تعاليم التجانية التي وضعت قواعدها بفاس وقد بلغ فى دعوته عام 1257 هـ / 1841 م جبال (فوتا جالون) واستشهد فى غزواته عام 1282 هـ / 1865 م (34) .

وولده ابراهيم السوداني الفوتي (وقيل من قرابته) قد سكن مراكش وكان بيته منتدى للوزراء والعلماء زاهدا عابدا على مشرب ابن عربي الحاتمي يحفظ فتوحاته (35) ومن علماء السودان الذين نهلوا من ينابيع العلم وقد اقتبس من التجانية بفاس ابن سنة محمد بن محمد العمري الفلاني الذي عمر مائة وخمسين سنة وتوفي عام 1186 هـ / 1772 م (36) . وقد توارد على فاس أوائل القرن الحادي عشر الهجري علماء ورحالون من الحجاز وفلسطين ومصر والشام والعراق والهند بالاضافة الى الفئات التي توالت على المغرب منذ عهد الموحدين

---

(34) لوشاتولييه Le Chatelier فى كتابه (الاسلام فى افريقيا الغربية) ـ باريس 1899 (ص 167) .

(35) (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 191 ـ طبعة 1975)

(36) (الاعلام للمراكشي ج 5 ص 82)

كما انطلقت من فاس أفواج من رجالات الفكر نحو الشرق تعزيزا لسندها العلمي وتوثيقا لاصالة التراث الاسلامي المشترك .

وقد افاض الناصري فى الاستقصا (ج 4 ص 64) فى وصف ابعاد الهجرة من فاس الى السودان وتونس ومصر والشام خلال سنتين فقط (ما بين 1143 هـ / 1145 هـ) ، كما بسطنا القول فى بحث مستفيض حول (رسل الفكر الاسلامي) بين هذه المناطق شرقا وغربا وجنوبا نشر منذ عقدين من السنين فى كتابنا « معطيات الحضارة المغربية » ومن هذه النماذج :

فاتح بن عثمان الاسمر التكروري الذي عاش بمراكش (695 هـ / 1295 م) (37) .

وابو اسحاق الساحلي المعروف بالطويجن الذي لقي سلطان مالي مسنا موسى فى موسم الحج بعرفة فصحبه الى بلاده وبنى له قبة بها على الشكل المغربي من الترخيمات الكلسية والاصباغ المشبعة وقد وصف ذلك كل من ابن خلدون وصاحب الاستقصا (38) وقد توفي بتنبكتو عام 747 هـ / 1346 م .

وامير المؤمنين فى الفرائض والحساب ابراهيم المصمودي المتوفى بفاس عام 912 او 913 هـ (39) قد تتلمذ له ابراهيم الزواوي فقيه كنو من السودان (40) .

وعثمان السوداني شيخ ادريس بن محمد بن احمد المنجرة الفاسي وكان كوري اللسان توفي حوالي 1110 هـ / 1698 م (41) .

---

(37) خطط المقريزي / الاعلام للمراكشي ج 8 ص 9 (خ)
(38) (ج 2 ص ص 74) / النفح ج 2 ص 393
(39) درة الحجال ص 107 / السلوة ج 2 ص 4
(40) (الدرة ص 111)
(41) (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 396 (خ))

واقيت عمر بن محمد قاضي تنبكتو الذي توفي بمراكش عام 1003 هـ / 1594 م (42) .

وأحمد بن احمد بابا التكروري الصنهاجي السوداني (1036 هـ / 1627 م) الذي اقتبس من علماء جامعة القرويين ما أهله لان يصبح من كبار ائمة افريقيا .

وأحمد بن الامين السوداني المهندس تلميذ السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن فى علم الهندسة وقد ختم على أمير المؤمنين كتاب (اقليدس) فى الرياضيات (43) .

ومحمد السوداني المقرىء العشري الذي توفي بمراكش (1308 هـ/ 1890 م) (44) .

وأحمد بن محمد بن امحمد الكاملي الضرير المراكشي الدرعي الرحالة (المتوفى عام 1315 هـ / 1897 م) والذي استقر بأرض (غب) بين (سانيكان) و (تنبكتو) وكانت له صلة وثيقة بسيدي عمر الفوتي ابان مقاتلته (بمبارة) وهي قبيلة سودانية دعاها سيدي عمر الى الاسلام وقد استوطن (تندوف) من 1299 هـ الى 1309 هـ وكان يحفظ صحيح البخاري ومسلم باسانيدها (45) .

وأغرب ما يذكر ان رجلا ايرانيا ابن ملولة تولى قضاء فاس هو الفارسي الاصل (400 هـ / 1009 م) وكان ممن ورد على الملوك الادارسة (46) .

ومن الاعلام الذين وثقوا الصلات عبر افريقيا بين شقيها الغربي والشرقي محمد بن عمر بن ملك المعافري الاسكندراني المولود بفاس

---

(42) (فتح الشكور فى معرفة اعيان علماء التكرور) لمحمد بن ابي بكر الصديق بن عبد الله ابن محمد الولاتي

(43) الاعلام للمراكشي ج 2 ص 409 (طبعة 1974)

(44) (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 123)

(45) (الاعلام للمراكشي ج 2 ص 429 (طبعة 1974)

(46) (الكناشة لابن سودة)

عام 548 هـ وهو استاذ الرحالة ابن رشيد السبتي صاحب (ملء العيبة)، وابراهيم بن محمد بن فارس بن شاكلة الكانمي الذكراني من (كانم) بلد تلي صعيد مصر سكن مراكش وتوفى عام 608 هـ / 1211 (47) ومحمد بن عيسى بن عثمان بن علي الحميري الفاسي (48) ، ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب المنطقي الذي تولى التدريس فى المنصورة والخانقاه الشيخونية بالقاهرة (49) توفي عام 774 هـ / 1372 م .

وابن المعلم يعقوب بن عبد الرحمن بن اظوال اليشفري الذي تولى قضاء الجماعة بفاس وتازة حج واقام بدمشق ثم القاهرة والاسكندرية توفي فى طريق العودة (877 هـ / 1472 م (50) .

وموسى بن محمد بن ابي الفتح محمد بن احمد الفاسي الحنبلي ولد ببلاد (كلبرجا) من الهند وقدم مكة بعد 830 هـ / 426 م وله ازيد من عشر سنين وعاد الى الهند بعد الخمسين (51) .

والفاسي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي المالكي (52) (832 هـ / 1428 م) .

ومحمد بن أبي بكر بن احمد الفاسي المصري (53) .

ومحمد بن عمران الشريف الكركسي الفاسي شيخ المالكية والشافعية فى الديار المصرية والشامية (54) .

---

(47) (صبح الاعشى ج 5 ص 280)
(48) الدرر الكامنة ج 4 ص 246
(49) (درة الحجال ص 490)
(50) الضوء اللامع ج 10 ص 285 (طبعة القاهرة 1355 هـ)
(51) الضوء اللامع ج 10 ص 189 (طبعة القاهرة 1355)
(52) تاريخ بروكلمان ج 2 ص 173 / كشف الظنون ج 2 ص 1150 وهو صاحب « العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين » الموجود منه الثلث الثالث وهو الاخير صور من مكتبة فيض الله 1482 دار الكتب المصرية 378 تاريخ (اربعة اجزاء) / نسخة ثالثة بالازهر تاريخ (709) 10665 (الجزء الثاني) كتب عام 872 هـ .
(53) الضوء اللامع ج 7 ص 154
(54) الديباج لابن فرحون (ص 286) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة شيخ مرتضى الزبيـــدي شارح القاموس وقد تتلمذ هذا أيضا للشيخ الطيب الشركي الفاسي الذي اضاف الى قاموس الفيروزاباذي مجموعة أصيلة من التراث اللغوي تدل على مدى تغلغل لغة القرءان فى أثالتها وعراقتها بالمغرب الاقصى وخاصة بفاس .

وعبد الرحمن سقين الفاسي الذي اخذ الحديث عن القلقشنـــدي وزكرياء الانصاري والسخاوي بمصر وابن فهد بمكة (55) .

وادريس العراقي الفاسي الذي كان له فضل على محدثي مصـــر حيث استدرك احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيـــف على الخمسة ءالاف وكان احفظ من ابن حجر العسقلانـــي شارح صحيـــح البخـــــاري (56) .

وقد افاض المقري فى اطلاع علماء مصر على غزارة المادة العلميـة عند علماء فاس خاصة منهم ابا زيد عبد الرحمن الفاسي وذلك عندمـــا سألوه عن زملائهم من أعلام المغرب ووالده الشيخ عبد القادر الفاسي هو الذي تتلمذ له غالب فقهاء افريقية ، وقد قامت على اكتاف الفنان عبـــد الكريم الفاسي (57) نهضة فى صناعة الخزف بمصر فى القرن الماضـــي حيث كان يصنع الواح القاشاني لتغطية جدران العمائر وتوجد الآن نماذج منها فى دار الآثار العربية بالقاهرة .

ومن جهة أخرى سادت النظريات الفاسية فى التصوف فى القارة الافريقية وتجاوزتها الى الشرقين الادنى والاوسط بظهور طريقة ابـــي الحسن الشاذلي دفين الاسكندرية واحمد البدوي الفاسي دفين طنطـــا وكذلك علي بن ميمون الفاسي بالشام كما اسس أبو محمد صالح دفيـن اسفي سلسلة منازل فى طريق الحجيج عبر افريقيا كعامل اساســـي فى طريقته الصوفية واصبح (دلائل الخيرات) ورد الافارقة منـــذ القـــرن

---

(55) السلـــوة ج 2 ص 160 .
(56) السلـــوة ج 1 ص 142 .
(57) (كما لاحظ ذلك تيمور فى كتابه حول التصوير عند العرب) .

التاسع الهجري حيث انتشر في انحاء العالم الاسلامي بصورة لم يسبق لها نظير ، وقد كان لقطب الدين القسطلاني بمدرسة الحديث بالقاهـــره كبير اعتناء بأصحاب أبى محمد صالح الوافدين على مصر .

وحتى الجالية اليهودية بفاس نابها من هذه الفورة العلمية حظ كبير فأصبح اعلامها مرجع الفكر العبري فى العالم ، وقد انحدر يهود فاس منذ عهد المولى ادريس الثاني من القيروان ومصر وبابل وفارس بل انحدر الى المغرب فلول ممن انهزموا فى وقعة خيبر عام 7 هـ / 628 م كما ازدهرت بالعاصمة الادريسية حركة فكرية تلمودية فى عهد المرابطين والموحدين وقد استوطن موسى بن ميمون صاحب (دليل الحائرين) بفاس حيث كان يسكن بدار المجانة واصبحت فاس كما يقول البكري (58) (اكثر بـــلاد المغرب يهودا يختلفون منها الى جميع الآفاق) وقد استعمل يهود فاس اللغة العربية فى كتاباتهم ومحاوراتهم منذ القرن الثالث الهجري ضاربين بذلك مثلا رائدا لزملائهم فى افريقيا والشرق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وامسى كتاب (سيبويه) فى النحو منطلقا لتجديد النحو العبـــري بفاس منذ القرن الرابع كما يقول (ماسينيون) (59) ودعا آنذاك الحبـــر الفاسي (دونش ابن لبرات) وكذلك داود بن ابراهيم الفاسي صاحـــب قاموس (اجرون) (عربي ـ انجليزي) الى فكرة جريئة هـــي تعريـــب العبرية أي وجوب العناية بالعربية والاستعانة بها فى فهـــم مصطلحـــات (العهد القديم) وضرب ابن لبرات مثلا لذلك بنحو مائتي كلمة عبرية ما كان لاحبار التلمود أن يستكنهوا معانيها لولا رجوعهم الى العربية ولا يخفى ما كان لهذه الحركة من اثر فى مراكز التلمود بمختلف انحاء القارة الافريقية التي اصبحت تدين للعاصمة الادريسية .

وقد تزايد هذا التكتل عند ما وضع اسحاق بن يعقـــوب الكوهـــن الملقب بالفاسي (المولود عام 404 هـ / 1013 م) فى قلعـــة ابن احمد

---

(58) (المسالك والممالك ص 115)
(59) (مجموعة البحوث والمحاضرات ـ مؤتمر مجمع اللغة العربية ص 218 (1959ـ1960)

قرب فاس وتوفي بالوسينة قرب غرناطة عام 497 هـ / 1103 م شرحا للتلمود (60) فى عشرين مجلدا يعتبر من اهم كتب التشريع وله ايضا 320 فتوى ليهود افريقيا وآسيا محررة كلها بالعربية وهو الذي اسس بالوسينة عام 482 هـ / 1089 م معهدا للدروس العليا التلمودية كان الطلاب يؤمونه من كل جهات العالم .

وقد اتسع في فاس طوال خمسة القرون التالية نطاق الدراسات التلمودية (حسبما رواه مؤلف Yahas Fes عام 914 هـ / 1508 م وظل يهود فاس يدرسون العربية ويكتبون بها حيث انتهى الفيلسوف (يهود ابن نسيم ابن مالكا عام 767 هـ / 1365 م (موافق 5125 من السنة العبرية) من تاليف كتابه (انس الغريب) (61) وكذلك شيخ التعاليم بفاس (خلوف المفيلي) الذي نزل عنده ابو عبد الله الآبلي العبدري شيخ ابن خلدون قبل ان يرحل الى ابن البناء بمراكش (62) .

وقد اضطلعت فاس بدورها القيادي كنقطة ارتكاز وارتباط لا بين اجزاء القارة الافريقية والشرق بل ايضا مع اوربا والمتوسط حيث ظل القيروانيون والاندلسيون منذ العصور الاولى على صلة بقطريهما كما كانت الجالية اليهودية تعقد صفقات مع يهود افريقيا الشمالية وحتى اسبانيا وتنص وثائق اوربية منذ القرن العاشر الهجري (اي العصر السعدي) على وجود روابط تجارية بين فاس وعدة مناطق اوربية حيث استقر تجار غربيون فى دار كبرى بفاس كانت تسمى الديوانة وقد اشار الى ذلك كل من الحسن بن محمد الوزان (ليون الافريقي) ومارمول وديبكو دي طوريس Diego de Torres اسس السعديون « ديوانة » اخرى بفاس الجديد قرب القصر الملكي حسبما اكده الرحالة البرتغالي فاركاس (63) .

---

(60) التلمود هو مدونة تقاليد الاحبار فى شرح قانون موسى وفيه (المشنا) وهي مدونة العادات الشفوية والجمارة) وهي شرحها .

(61) (هسبريس ـ ص 402 عام 1952) .

(62) (طبقات الشعراني ج 2 ص 215)

(63) (مصادر اوربية لتاريخ المغرب Sébastien de Vargas ـ البرتغال 3

وكانت فاس تجلب من البرتغال الجلود والقمح والحبوب بواسطة سماسرة يعينهم ملك البرتغال واحيانا عن طريق تجار خصوصيين ويبيعون للانجليز السكر وملح البارود والزرابي والذهب والنحاس والصمغ والجلود واللوز والثمر وربما الافراس احيانا فى مقابل الجوخ والمنسوجات والطرابيش والشواشي والمرمر والحلي والاحجار الكريمة والاسلحة والعتاد والمواد الاولية الصالحة للصناعة الحربية كالحديد والقصدير والرصاص والكبريت وكان البندقيون (هم ...) اهل البندقية (Venise) يحملون الى ميناء باديس بغمارة بضائع شتى عوض اخرى يصدرونها الى تونس وحتى الاسكندرية وبيروت بل كان البندقيون يصلون الى فاس وسلا ايضا للقيام بنفس الصفقات ، وقد فسح ظهور الملوك العلويين المجال لتطور جديد فى نطاق التجارة العالمية حيث برز فى الميدان تجار آخرون مثل الفرنسيين والانجليز والهولنديين وتضاعفت خلال القرن الماضي مع تطور المواصلات البحرية المبادلات بين كل من أوربا والقارة الافريقية وكانت فاس ميناء على نهر سبو تصعد اليه المراكب المتوسطة من المحيط بفضل صبيبه القوي وقد تحدث عن هذه المرسى كثير من المؤرخين والرحالين الغربيين .

وهكذا استطاع المغرب أداء رسالته الخالدة على الوجه الاكمل منذ ان كان الاسطول الموحدي أول اسطول فى البحر الابيض المتوسط (64) استنجد به صلاح الدين الايوبي لمحاربة القطع الصليبية فى سواحل الشام ، وقد شكل الموحدون مليشية بحرية لمحاربة القرصنة تعزيزا للتجارة الدولية كما لقنوا أوربا ـ حسب اندري جوليان وماس لاطري ـ مقتضيات القانون التجاري الدولي الذي عززه سيدي محمد بن عبد الله ـ حسب (كايي) Caillé فى كتاب أفرده لذلك حيث سبق العاهل المغربي أوربا الى وضع أسس الفقه الامي فى العلاقات بين الدول واستنجدت به الولايات المتحدة التي كان أول من اعترف بها وكذلك السويد والدنمارك بحماية اسطولها من القرصنة فى المتوسط والمحيط ،

---

(64) اندري جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية

وكانت فاس آنذاك المركز الصناعي الافريقي الاول بفضل معاملها التي بلغت 400 رحي لصنع الورق و 11 معملا لصنع الزجاج بالاضافة الى مصانع السكر فى الجنوب وكانت تمد اوربا الغربية بالورق الفاسي والسبتي والشطبي بينما كانت عاصمة بغداد سامراء (سر من رأى) تمد اوربا الشرقية .

وقد تغنى شعراء افريقيا والشرق بأمجاد فاس واعلامها ومعالمها فهذا شيخ الاسلام أبو اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي (1266 هـ / 1850 م) تلميذ سيدي برادة حرازم الفاسي صاحب (جواهر المعاني) قد عبر عن حنينه الى فاس ورجالها فقال :

صاح اركب العزم لا تخلد الى اليأس
واصحب أخا العزم ذا وجد الى فاس

واشرح متون صباباتي لجيرتها
وحي حيا بهم قد كان ايناسي

واقر السلام على تلك المعاهد من
حيران تلفظه ناس الى ناس

وقل لهم ذلك المضنى وحقكم
باق على العهد ذو وجد بكم راس

ووصفها كذلك ابن النحوي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الذي دخل كلا من سجلماسة وفاس وتوفي بقلعة بني حماد عام (513 هـ / 1119 م) :

يا فاس منك جميع الحسن مستـــــرق
وساكنـوك أهنيهـــم بمـــا رزقـــــــوا

هـــذا نسيمـــك أم روح لراحتنـــــــا
وماؤك السلسل الصافي أم الـــــــورق

أرض تخلـلـــت الانهـــار داخلهـــــــا
حتى المجالس والاسواق والطـــــــرق

تلك عجالة مقتضبة عن فاس ودورها الريادي كعاصمة للفكـــر في افريقيا وحاضرة في طليعة حواضر العالم الاسلامي دعمت تراث العروبة والاســـــــلام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الربـــاط **عبد العزيز بنعبد الله**